الأدب العربي وازدواجية اللغة

بقلم فؤاد أفرام البستاني

من عادة اقطاب السياسة وجهابذة الاقتصاد وغيرهم من المضطلعين بشؤون المجتمع ان يتداعوا حيناً بعد حين الى مؤتمرات يتداولون فيها الآراء ، ويتناقشون ويقررون ما يتفقون على صلاحه في تحقيق اهدافهم .

فما ضر ارباب الفكر واهل القلم ان يتنادوا ، وهم من المضطلعين بشؤون المجتمع كذلك ، الى مؤتمر يتباحثون فيه في قضايا الادب والفن ، غير غافلين عن الفروق بين الموضوعين . واهمها انه اذا سهل توجيه الاقتصاد باركانه الزراعية والصناعية والتجارية وفقاً للحاجات المحلية والاسواق العالمية ، واذا امكن تطوير السياسة بتطورات الحالة الدولية ، فلا تعنو الفنون الصحيحة لارادة موجه ولا تخضع لرغبة مسخر . انما من حق اهل القلم ان يعرضوا مشاكل الفكر وقضايا الادب ومناحي الفن متأثرة بالمجتمع مؤثرة فيه فيتدارسوها ويتبادلوا الآراء في حاضرها ومستقبلها . وعلى هذا دعتكم ايها الزملاء الكرام ، جمعية اهل القلم اللبنانية الى هذا الاسبوع نأتمر فيه في شؤون الادب العربي لا ائتمار الاطباء على العليل ، ولا ائتمار شيوخ اللغة في مجامعهم الرسمية ، بل ائتمار جماعة من المخلصين شاؤوا التساند والتعاون في تفهم مشاكل الادب الحاضرة وتوضيحها ، وفي العمل من ثم على معالجتها .

ولقد كان من حظي ان افتتح هذه الابحاث بان اعرض امامكم خطوطاً وتلميحات من مشكلة هي في طليعة المشاكل العريقة في ادبنا العربي : مشكلة ازدواجية اللغة . ولست اطمح الى وجود حل لهذه المشكلة ، بل لست اطمح الى التوفق بعرضها كاملة تامة . انما هي خطوط وملاحظات اطرحها مواد للمباحثة والمناقشة عساها تعيننا في التحديد والتوضيح . ويكفي كثيراً من مشاكل الادب والفن ان تحدد وتوضح ، فتقسل فيها اقوال السذج واحكام الجهال .

ليعد كل منا بالخيال الى زمن دراسته ، وليتذكر ماقاسى من جهود في الانتقال من التعبير المحكي الى التعبير المكتوب . واذا خانته الذاكرة ، فليرافق صغار الكتاتيب في سنواتهم الاولى ، وليتخيل ما يعترضهم من صعوبات في تحصيل اولى دروسهم بالمفردات : فهذه في البيت ، والشارع ، اي في الحياة العائلية والتجارية وغيرها « طاولة » (هذا في لبنان اما في مصر فتدعى ترابيزة ، وفي العراق ميز الخ ...) وهي في المدرسة منضدة .

وهذا في البيت «لوح اسود» وفي المدرسة « سبورة » .

وهذه في البيت « محّاية » وفي المدرسة « طلاّسة » .

وامثال ذلك اكثر من ان تحصى . هذا في المفردات . وهناك القواعد . فاين المثنى ؟ واين ضمير الاناث ؟ بل اين الاعراب بكامله في اللغة المحكية ؟ — وينبغي ان اقول — في اللغات ؟ لان لغة كل قطر تختلف عن لغة القطر الآخر احياناً اختلافها عن اللغة الفصحى .

وندع لفظ الحروف جانباً ، فكم من قاف لفظت همزة وكافاً ؟ وكم من كاف لفظت شيناً ؟ وكم من ثاء لفظت تاء وسيناً ؟ وكم من ذال لفظت دالا وزاياً ؟ وكم من ظاء لفظت زاياً مفخمة ، وكم من ضاد لفظت دالا مفخمة او ظاء ، حتى كاد نعت لغة الضاد يتبرأ من ان ينطبق على عربيّتنا المحرفة .

هي صعوبة تربوية اساسية تنتج من هذه الازدواجية فتكوّن مشكلة في التعليم تعيق تحصيل ابنائنا دروسهم في الزمن المفروض .

بيد انها لو كانت الوحيدة لهان الامر ، ولانصرف لها اختصاصيو التربية ، فعالجوها وفقا لما يرتأون ، ولما تمدّهم به اساليب التربية الحديثة .

انما هناك اثر هذه الازدواجية في التعبير من حيث انها تنحرف بالناشىء المعبرّ عن مجال الحياة الواقعية ، فتصرفه عن طراءة العبارة الطبيعية التي تدفعه اليها بيئته القريبة ويولدها اختباره الشخصي ، مهما يكن ناشئاً في الحياة الى العبارة المكتوبة المحنطة منذ القدم ، المعلّبة في « فقه اللغة » او « الالفاظ الكتابية » او « نجعة الرائد » .

فاذا شاء التعبير عما يخالجه من عاطفة او فكرة لجأ الى هذه القوالب المحفوظة والمركبات الجاهزة سواء أوافقت الحالة الواقعيّة التي يود نقلها ام لم توافقها . او لم نسمع بطلا من ابطال احدى المسرحيات العصرية ، وقد شاء التعبير الفني عن اعجابه بجمال حبيبته ، يصيح كمن وجد صورة رائعة لهذا

الجمال : « انك كالعهن المنفوش » . وكم شهدنا من رجل اذا شاء التعبير عن خيبته يلجأ الى خفي حنين ، وهو لا يدري ما الخفّان ومن حنين هذا ؟ اولم تسمعوا بعض المثقفين يتكلمون عن « الازمّة » الخانقة ويشددّونها نسبة لاشتداد الضائقة ؟ وما لنا وللناشئين ، جهالاً باللغة او انصاف مثقفين ، ولنسمع الشيخ احمد فارس الشدياق ، من اقطاب اللغة في عصره ، او لم تلتبس عليه « الدراري » و « الدرر » حين كتب في مقدمة « سرّ الليال » — وهو كتاب في اللغة — « فلهذا كان اقصى همي ان اغوص في بحر هذه اللغة على **دراري** هذه الالفاظ ...» وشتان ما بين لآلىء البحار وكواكب السماء . وهل كان بالامـــكان ان يدفع الى هذه الغفلة لو كان يجري استعمال الدراري للكواكب على لسانه في لغته المحكيّة يومياً ؟

والامثلة على هذا اكثر من ان تحصى . ولكل منــا في حقل اختباره الاماثيل والعبر ، حتى صحّ قول الشيخ ابراهيم اليازجي — قبل سبعين سنة — وهو من هو في الذود عن حمى الفصحى ، والغيرة على سلامتها وصفائها :

« ولا يخفى ان اللغة اليوم قد اصبحت كأنها لغة قوم آخرين ، لذهابها من الالسنة من عهد عهيد ، وايداعها بين الواح المصاحف لا تبدي ولا تعيد ... الا وان اللفظ وضع ليكون مسموعاً لا منظوراً ، واشخاصه انما هي الاصوات الناطقة لا الرسوم الصامتة . فكيف يتأتى لهذه المنــاجيات السرّية ان تغلب على تلك المناغيات الجهرية ، مع تواترها على حواسه في المعاشرات اليومية والمحادثات البيتية ، لا ينطلق لسانه الاّ بها ، ولا يجري في خاطره الاّ صورها ، ولا يرنّ في صماخه الاّ صداها » .

على ان هذه المشكلة — مشكلة التفاوت بين اللغة المكتوبة واللغة المحكية ليست حديثة العهد — وفي هذه الظاهرة تخفيف من غلواء الحاكمين حكماً مبرماً على اللغة الفصحى ، والداعين الى ان نستبدل بها اللغة ، بل اللغات العامية .

فلنتريّث في الحكم ولنسمع الخليل بن احمــد الازدي الفراهيدي ، يحدد البلاغة بقوله :

«ركن البلاغة اللفظ ، وهو ثلاثة انواع : **نوع لا تفهمه العامة ولا تتكلم به** ، ونوع تفهمه العامة وتتكلم به ، ونوع تفهمه العامة ولا تتكلم به ، وهو احمدها . »

ألا يفرض هذا التحديد في نوعه الاول بوناً بين لغة العامة ولغة بعض ارباب البلاغة ؟ او لا تتبطن ازدواجية اللغة منذئذ — اي منذ العهد العباسي الاول — بازدواجية كانت مــن نتائجها ازدواجية التعبير الادبي الفائق ، وكدت اقول ازدواجية الأدب ؟ وهل كان تعبــير الهمذاني والصاحب وابن العميد صورة صحيحة — وان فنية فائقة — عن تعبــير الشعب في شيراز والرّي وهراة وغزنة ؟ بل هل كان الشعب في هــذه الحواضر الفارسية يفهم لغة هؤلاء الادباء فضلاً عن تذوقهـــا والاستمتاع بها ؟

لنقرأ همزة بدون حركة المقامات والرسائل على شعب نيسابور واصبهان وهمذان في زمن اربابها ، اي في القرن العاشر ، ولنتصور ما يكون تأثيرهم بها ، وارتياحهم لوقعها ؟

وما القول اذن في ادباء الاندلس ولغة عامة الشعب كانت اذ ذاك خليطاً من الاسبانية القديمة ، والــبربرية والقوطية والعربية حتى غدت الازجال هي وحدها المعبرة تعبيراً صحيحاً عن عبقرية الشعب الاندلسي ، لا الشعر الرفيع ولا النــثر المسجّع الجاريان على تقليد الاسلوب المقرّر .

اما الموشحات فقد كان منهــا الطبيعي الفطــري ، ثم الاصطناعي — وهو الذي وصل الينا في منظومــات ابن الخطيب وزملائه .

او نخطىء اذا قابلنا بين هذا الادب الارسوقراطي المحصور في طبقة من سراة الادباء المنعمّين بأفانين التعبير من لغة لا تجد جذوراً لها في الشعب ، ولا صدى في مسامعه ؟ او نخطىء اذا قابلنا بينه وبين ما كان يتفنن به ادباء اللاتين من منتجات رائعة في نظر حلقتهم الارستوقراطية وهم عائشون في بعض المستعمرات والحواضر الرومانية ، في بيروت مثلاً او بعلبك او اورشليم ، في بيئة لا تحسّ بين جوانحها نبرة لكل مــا يردّدون .

ننتقل بالفكر الى هذه البيئات قبل الف او الفي سنة ، وكأننا ننتقل بالفعل في يومنا هذا الى بعض مــدارسنا الاكليريكية المارونية فنشهد بعض حفلات المحافــل الادبيــة يتبارى فيها الطلاب باللغة السريانية شعراً ونثراً ، او الى بعض المدارس الدينية الاسلامية في ايران وشمالي العراق ، فالجزيرة السورية ، وارياف مصر ، يتبارى فيها الطلاب باللغة العربية الفصحى . ولا نبعدنّ كثيراً في الزمان والمكان . لنــدع الشعب اللبناني الى بعض المدارس ، ولنقم أمامه ما اصطلح

على تسميته بالاسواق العكاظية . ولنطلق طلابنا ، ابناءه ، يتعاكظون على مرأى منه ومسمع فيلقي احدهم قصيدة في وصف النمر يعارض بها ما ينسب لبشر بن ابي عوانة . وينشد الاخر موشحاً يترسم به خطى ابن الخطيب ، ويتلو الثاني ابياتاً يضرب فيها بين الدخول فحومل . فيصفق الحاضرون ويطرب المدعوّون ، ولكن هل يكون لتصفيقهم ولحماستهم من قياس غير ارتفاع النبرات، وجهارة الاصوات، وحركات الايماء والالقاء في تمارين ابنائهم ..؟

تمارين مدرسية ، فروض او وظائف يقوم بها الطلاب تطبيقاً لاصول مدروسة وقواعد متوارثة ، واقتداء بأمثلة قديمة اقرّها العرف والتقليد في اسّ الادب الكلاسيكي. وهل كان القسم الكبير من ادبنا الرسمي الاّ من هذه التمارين والتطبيقات المدرسية ؟

ما الذي اهاب بالحريري الى تأليف المقامات ؟ اولاً يعترف هو نفسه بأنه ألفها اقتداء « بمقامات البديع ، وان لم يدرك الظالع شأو الضليع » .

وما الذي دفع اليازجي الى تأليف مجمع البحرين سوى تقليد الهمذاني والحريري معاً ؟ وهذا الشعر المتردد بين الفنون التقليدية من ابي تمام والبحتري الى احمد شوقي ، اية حاجة فنية دفعت اليه ؟ بل اية رغبة حيوية شعبية قام يلبيّ في تقليده ؟

واحمد شوقي نفسه — مع حفظ الالقاب — هل كان يعمد الى نظم قصائده الكبرى من مدح وتهنئة ورثاء الا متوكئاً على ما تركه الشعر العريق في الفنون نفسها حتى اصبح من الممكن ، بل من الميسور ، ان نردّ كل قصيدة منها الى مستندها القديم فكرةً ووزناً وقافيةً بل صوراً وتشابيه. اولم يلجأ في تهنئة مصطفى كمال ، الى بائية أبي تمام في تهنئة المعتصم. معركة عمورية ومعركة سقارية . المكان قريب وديوان أبي تمام قريب كذلك . فلا عبرة بالاحد عشر قرناً ، وبكل ما تحمله من تطورات وولادات وجنازات في اساليب الحياة والتعبير عنها . او لا يقرب من هذا موقف شيخنا اليازجي الكبير صاعداً في اول الصيف على بغلته الشقراء من كفرشيما الى بحمدون ، وقاطعاً هذه الاودية والمشارف التي تسمعون حفيف اغصانها المائسات، وخرير سواقيها المتسابقة، وتنتشون بمناظرها الخلابة ، وهو يصرف شخصيته عن كل ذلك ضارباً بخياله في مجاهل الصحراء مؤلفاً مقامته اليمامية ، مفتخراً بأنه حفظها عن ظهر قلب حتى اذا وصل استدعى بقرطاس فدوّنها . متى كان ذلك ؟ وفي أي بلد ؟ لنرفع عن جلد « مجمع البحرين » اسم الشيخ ناصيف اليازجي ، واسم بيروت مكان طبعه . ولنرفع الكتاب احجية لعلماء الأدب فيقترحوا نسبته الى أي عصر من عصور الانحطاط .

وما القول في انواع المعارضات والتخميسات والتشطيرات من تخميس الحلي لقصيدة السموأل الى معارضات « يا ليل الصبّ متى غده »الى تشطير معلقة عنترة للشيخ عبدالله البستاني، تمارين مدرسية وفنّنن ارستوقراطي اللغة ، وتلذّذ ترفي في النظم والنثر ، على غير حاجة واقعية ولا دافع فني ، بل انتشاء وتخدّر بالفاظ وتعابير محنطة لا وقع لها ولا اصل ، ولا صدى فهم في الشعب . اذ لم تكن هذه الازدواجية الاصلية من العوامل التي صرفت القسم الكبير من ادبنا عن ان يكون **ادب شعب** الى جعله **ادب لغة** .

او ليس جديراً بالاعتبار ثم بالاسف ان تكون اللغة، بعد ان تخلّصت من رسميات ابن المقفع ، فنزلت الى معترك الحياة حتى مباذلها على يد الجاحظ قد عادت فانتكست في بلاط البويهيين منكمشة في ابراج الزخارف اللفظية ، ساهراً عليها ابن العميد والصاحب وبديع الزمان ، آخذة بافتعال الصور والخيالات والاحاسيس كما تفتعل الزهور في المدافىء الزجاجية؟ حتى ضاعت السليقة الفنّانة في متاهات الاسجاع والجناسات . ونشأ في وجه هذه الملاهي الزخرفية وقد يقول المقلّد : على هامشها ، ادب شعبي فيه من الطبيعة تنوعها وفيضها وفيه جمالها وقبحها ، وفيه حيويتها الخصبة على غير تشذيب ولا تهذيب . هو ادب الف ليلة وليلة الذي يزدريه الاخذون مأخذ التقليد الخارجي لرثاثة ثيابه وتشعث مظهره . على ان الحياة الفنّانة تردّ عليهم بابقائه حيّاً خالداً ، بل بجعله الكتاب العربي الوحيد في التأثير العالمي فيترجم الى اللغات المختلفة ويقرأه الادباء تحت كل كوكب ، ويدخل في نتاج الثقافة الانسانية بينا المقامات والرسائل وسائر مظاهر الادب الزخرفي لا تذكر الاّ محطّات في تاريخ الادب ، شواهد على نوع خاص من منتجات الثقافة الكتابية . هذه ادب لغة وتلك ادب شعب . وان انسَ لا انسَ استغراب اندريه جيد — وقد

زارنا لعشر سنوات خلت – الا يكون « لألف ليلة وليلة » في نظر ادباء العرب ، تلك الروعة التي تكتنفه في نظر ادباء العالم الغربي : والسبب سهل بسيط مردّه الى ضعف اللغة في حكايات الكتاب .

وقد يكون من المفيد ، ونحن نعالج المشاكل الادبية من حيث اثرها في المجتمع ، ان نشير وان تلميحاً الى نتائج هذه الازدواجية في الخلق الفردي والخلق الاجتماعي .

هي ازدواجية لغوية في الاصل . ولكنها قد تؤدي الى ازدواجية نفسانية في النشء اولاً ثم في سائر الجمهور . فنعبّر عن ازدواجية في حياتنا بين الحياة الواقعية الصحيحة سواء أكانت رفيعة ام وضيعة .

والحياة الخيالية المستمدة من احلام القراءات ومغامرات الافلام السينمائية .

اولا نخشى من نتائج ذلك ازدواجاً في شخصيتنا الاجتماعية :

فكما ان المفردات المحفوظة عن الكتب المرددة ، دون ان يكون لها اسّ واقعي ، لا تبرهن عما ترمي اليه ولا تدل صراحة وحقيقة على ما نحملها اياه . كذلك نخشى ان تصبح تصرفاتنا الخارجية وعلاقاتنا مع البشر آداباً مصطنعة وتظاهرات بالصداقة والاخلاص ، لا تنم عن الواقع ، فتقودنا عن غير قصد الى شيء من الباطنية . نضمر غير ما نبدي ، فنلجأ الى مجاملات ومظاهر لا تعادل الحقيقة ، كما نلجأ في تعبيرنا ، الى قوالب وتراكيب لا تعبر تماما عن الواقع الفكري .

ولا نطيل هذه الاشارة لئلا نخرج عن القضية الى نتائجها البعيدة ، فنعود الى عرض مبادىء نعتقدها معينة على تدبر هذه المشكلة الازدواجية . فنرى ان اللغة الحيّة على تطور دائم . فلا نخاف الخوف كله من وجود لغة محكية الى جنب لغة مكتوبة . وهو امر طبيعي شرط ان لا تتسع الشقة بينهما . فطبيعي ان تكون اللغة المكتوبة متحجرة بعض الشيء في تحديد كلماتها ، وضبط قواعدها ، حتى تنشأ ضرورة على اصلها لهجات حيّة . ولهذا يعدل اليوم في درس اللهجات عن الكتابة الى آلات التسجيل ، فتسجل اللغة الشفهية بنبراتها الحيّة ونغمتها المتهادية ابداً بتهادي الحياة المتطورة دائماً بتطور مرافق الحضارة واساليب المعيشة . وكلما انتقلت لغة الى طور الكتابة نشأ عن اصلها كما قلنا عدد من هذه اللهجات .

كل هذا طبيعي . ولكن ليس طبيعياً ان تكون اللغة المكتوبة بعيدة عن لغة الشعب حتى لا تفهم .

ثم ان الشعب هو الذي يحيي لغته ويطورها بتطور حياته ، ويغنيها بغنى ثقافته ومدنيته . ومن انتظر من لغة – اية كانت – ان تحيي شعباً وترقيه كان انتظاره طويلا ....

وهناك امر آخر ارجو ان ينتبه له . وهو ان اللغة لا يعقل ان تكون واحدة متماثلة لجميع افراد الشعب . فكما نتحقق اختلافاً ذوقياً في المأكل والمشرب والملبس والمسكن كذلك لابد من الاختلاف في اساليب التعبير بل في تذوق هذه الاساليب .

وبعد فأي موقف معقول ينبغي ان يكون موقفنا من هذه الحالة ؟ واية معالجة ممكنة لهذه المشكلة .

أنقبل على اللغة العامية في كل بلد من بلادنا نحمّلها ، على ضآلتها الحاضرة وضعفها الظاهر ، عبء التعبير عن حاجاتنا العلمية والفنية المتزايدة يوما عن يوم ، معرضين عن ثلاثة عشر قرنا من التقليد اللغوي العريق ، رامين بمفتاح عجيب طالما اولجنا – ويولجنا على رغم ما تعالاه من صدأ العصور – ابواب البلاد العربية جمعاء ، فأولانا اداة للتفاهم بين الملايين من العرب والمستعربين ؟

ام نبقى على تشبثنا بالفصحى مزدرين بهذه اللهجات المتصاعدة من مجال الحياة الواقعية ، مستزيدة يوماً فيوماً اختبارات اجتماعية وكثافات فنيّة لاجئين في حاجاتنا التعبيرية الى القوالب الجاهزة والاساليب المحنّطة ، راضين طوعاً او كرهاً عن هذه الازدواجية التي لمسنا عقمها وخطرها ؟

وهل من اللازم المحتوم ان نتخذ موقفاً من هذين الموقفين أو ليس هناك موقف وسط بين الحلين ؟

او ليس في تعميم التعليم ، واتساع مجال الصحافة ، وتقدّم الطباعة . وانتشار الاذاعات وسائل ينبغي درسها وتقديرها في حلّ هذا المشكل ؟ ولا نغفل عن اثر الاغاني الشعبية والافلام السينمائية .

كلها خطوط تتضافر على تحديد القضية في صعوبتها وخطرها وتعدنا اذا ما تأملناها ملياً لمناقشة الجلسة القادمة مساء غد إن شاء الله على ان نتدبّر كل ذلك بشروط ثلاثة : صراحة العالم ، وجرأة الطبيب الجرّاح ، وغيرة الاب على مستقبل ابنائه .

فؤاد افرام البستاني

عن ادباء لبنان